عبقرية الشريف الرضى

للدكتور زكي مبارك

« قبل نهاية هذا الشهر يصدر فى بغداد كتاب في جزأين للدكتور زكي مبارك . وهذه فاتحة ذلك الكتاب ، وهى تشرح مذهب المؤلف فى دراسة الأدب العربى وطريقته فى التأليف »

أما بعد فهذا كتاب « عبقرية الشريف الرضى » وما أقول إنى شغلت به نفسى سنة كما قلت يوم أخرجت شرح « الرسالة العذراء » ، ولا سبع سنين كما قلت يوم أخرجت كتاب « النثر الفنى » ، ولا تسع سنين كما سأقول باذن الله يوم أخرج كتاب « التصوف الإسلامي »

فما شغلت نفسى بكتابى هذا غير خمسة أشهر . ولكنها من أشهر بغداد لا أشهر القاهرة ولا باريس . وما كان لى فى بغداد لهو ولا فتون ، فكانت الليلة فى بغداد كليلة القدر ، خير من ألف شهر ، والتوفيق من أشرف الأرزاق

وكتابى هذا هو مجموعة المحاضرات التى ألقيتها فى قاعة كلية الحقوق ، وكانت تلك المحاضرات من أشهر المواسم فى حياتى ، فقد كان أصدقائى يخشون أن يمل الجمهور بعد أسبوع أو أسبوعين ، ولكن الجمهور كان يزداد إقباله من أسبوع إلى أسبوع ، ولم ينقذنى منه غير التصريح بأنى أنفقت كل ما كنت أملك ، ولم يبق إلا أن أستريح !

ومحاضراتى بكلية الحقوق فى بغداد هى الموسم الثانى بعد محاضراتى عن « المدائح النبوية » وهى المحاضرات التى ألقيتها باسم الجامعة المصرية فى قاعة الجمعية الجغرافية بالقاهرة ، فهل يتسع العمر لموسم ثالث فى القاهرة أو فى بغداد ؟

لا تسألونى كيف ظلمت نفسى فأعددت هذه المحاضرات وأنشأت معها مقالات كثيرة جداً نشرتها صحف مصر ولبنان والعراق ورججت الحياة الأدبية فى بغداد رجاً عنيفاً ، فذلك كان أقل ما يجب أن أصنع فى مقابل الثقة التى شرفتنى بها حكومة العراق ؛ وذلك كان أقل ما يجب أن أصنع لأحفظ لنفسى مكاناً بين الأساتذة المصريين الذين تشرفوا بخدمة العراق من أمثال محمد عبد العزيز واحمد حسن الزيات والسنهورى وعبد الوهاب عزام ومحمود عزمي ؛ وذلك كان أقل ما يجب أن أصنع فى خدمة تلاميذى وتلميذاتى فى بغداد ، وقد رأيت فى وجوههم وجوه أبنائي وبناتى فكلفت نفسى فى خدمتهم فوق ما أطيق

لا تسألونى كيف ظلمت نفسى فأنفقت من العافية ما أنفقت؟ — وقد ساءنى أن أعرف أن « دار المعلمين العالية » لها فى بغداد تاريخ ، فكانت تفتح ثم تغلق ، وتفتح ثم تغلق ، فاستعنت الله واستعنت بعطف معالى وزير المعارف الأستاذ محمد رضا الشبيبى وأريحية الأستاذ طه الراوى ومودة الدكتور فاضل جمالى ، وعولت على همة زميلى وصديقى الدكتور متى عقراوى ، وأقمنا دار المعلمين العالية أساساً من متين التقاليد الجامعية ، فأغنينا مكتبتها بالمؤلفات القديمة والحديثة وعلمنا طلابها كيف يبحثون ويراجعون ، وغرسنا فيهم الشوق إلى التحقيق والاستقصاء

ورأيت أن يكون من تقاليد هذا المعهد العالى أن يخرج فى — كل سنة كتاباً عن شاعر أو أديب أو مفكر لم يدرسه أحد من قبل ، فألفت كتابى هذا عن الشريف الرضى . فإن ترفقت شواغلى بمصر وأذنت لى بالرجوع إلى بغداد فسأخرج فى كل سنة كتاباً جديداً . وإن أبت تلك الشواغل أن أتمتع مرة ثانية بالاستصباح بتلام الليل فى بغداد فسيذكر من يخلفنى أنى طوقت عنقه بطوق من حديد ، وأن لا مفر له من أن يشقى فى سبيل « دار المعلمين العالية » كما شقيت

وإنما نصصت على هذه المعانى فى مقدمة هذا الكتاب لأجتدي العطف على « دار المعلمين العالية » . وممن أجتديه ؟ من حكومة العراق ، فما يجوز أن يغلق هذا المعهد ، وإنما يجب أن تبذل الجهود ليصبح منافساً قوياً لكلية الآداب بالجامعة المصرية

قد يقول قوم من خلق الله : ولماذا ابتدأت بالشريف الرضى ! إن قالوا ذلك فالجواب عند الأستاذ عباس محمود العقاد ، فهو يذكر جيداً أنى قلت له يوم أخرج كتابه عن ابن الرومى : كان الأفضل يا أستاذ أن تنفق هذا الجهد فى دراسة أشعار الشريف الرضى

إن قالوا ذلك فالجواب عند الأستاذ الدكتور طه حسين ، فهو يذكر جيداً أني نبهته إلى أن الاهتمام بدراسة شعر الشريف الرضى كان أولى من الاهتمام بدراسة شعراء القرن الثالث

إن قالوا ذلك فالجواب عند نادى الموظفين بالقاهرة فقد طلب في سنة ١٩٣٢ أن ألقى محاضرة عن أعظم شاعر في اللغة العربية فكانت محاضرتي عن الشريف الرضى

ابتدأت بالشريف الرضى على غير موعد ، فقد رأيتني فجأة بين دجلة والفرات ، فتذكرت أن قد جاء الأوان لدراسة هذا الشاعر الذى تعصبت له منذ أعوام طوال

ويشهد الله وهو خير الحاكمين أني لم أفكر في إنصاف الشريف الرضى إلا يوم قدم لي الدكتور شريف عسيران نسخة من كتاب الأستاذ المقدسي عن أمراء الشعر في العصر العباسي ، فأزعجني أن يهتم بابن المعتز وينسي الشريف الرضي ، مع أن ديوان ابن المعتز لا يساوى قصيدة واحدة من قصائد الشريف

فمن شاء له هواه أن يزعم أن لي غاية في التعصب للشريف الرضى فليتق الله في نفسه ، وليذكر أن الدكتور زكى مبارك لو كان أنفق نشاطه في الاتجار بالتراب لأصبح من كبار الأغنياء ، ولكنه بلا أسف سيموت فقيراً لأنه أنفق نشاطه في خدمة الأدب العربي

والأدب العربي خليق بأن يكون له شهداء ، وأنا في طليعة أولئك الشهداء

سيرى قراء هذا الكتاب أنني جعلت الشريف أفحل شاعر عرفته اللغة العربية ، وقد سمع بذلك ناس فذهبوا يقولون في جرائد بغداد : أيكون الشريف أشعر من المتنبي ؟

وأستطيع أن أجيب بأن الشريف في كتابي أشعر من المتنبي في أي كتاب . لن يكون المتنبي أشعر من الشريف إلا يوم أؤلف عنه كتاباً مثل هذا الكتاب . والقول الفصل في هذه القضية أن المتنبي في بابه أشعر من الشريف ، والشريف في بابه أشعر من المتنبي ، وكل عبقري هو في ذاته أعظم الناس لأن ميدانه لا يجاريه فيه أحد سواه ، والشريف بهذا المعنى أفحل الشعراء لأنه جرى في ميادين سيظل فارسها السباق على مدى الأجيال

وما الذى يضر أنصار المتنبي حين أقدّم عليه الشريف ؟

هل فيهم من يحفظ ديوان المتنبي كما أحفظ ديوان المتنبي ؟

إن سجلات كلية الآداب بالجامعة المصرية تشهد بأني كنت أول من دعا إلى الاحتفال بمرور ألف سنة على وفاة المتنبي ، ولي على ذلك شهود منهم الشيخ الكندري والأستاذ عباس محمود والدكتور منصور فهمي

وما الذى يضر أهل العراق من أن أهتمّ بشاعر لا يعرف العراقيون موضع قبره على التحقيق ؟ أليس من العجائب أن يعرف العراقيون قبر معروف الكرخي ويجهلوا قبر الشريف الرضى ؟

إن هذا هو الشاهد على أن العوام أحفظ للجميل من الخواص !

إن كان خصومي في بغداد دهشوا من أن أتعصب لشاعر رضي عنه ناس وغضب عليه ناس فليذكروا أنني كنت كذلك طول حياتي فوضعت بالنقد قوماً ورفعت آخرين ، وفقاً للحق لا طوعاً للأهواء

وأنا والله راض بأن يغضب عليّ أهل بغداد ، فقد غضبوا على أبي طالب المكي فمحوه الخلود

أنا أحب الخصومات لأنها تذكي عزيمتي ، ومن أجل هذا أنظر نظر الجزع إلى مصير خصوماتي في بغداد ، فلن يكون لي في بغداد خصوم بعد ظهور هذا الكتاب ؛ وإنه لقادر على أن يفجر العطف في القلوب المنحوتة من الجلاميد . سيذكر أدباء بغداد أنني أحببت شاعراً هو من ثروة المروءة وثروة العراق . سيذكر أدباء بغداد أنني وفيت لمدينتهم السحرية حين اهتممت بشاعر كان أصدق من عرف النعيم والبؤس فوق ثرى بغداد

وكتابي هذا تطبيق لما شرعت من قواعد النقد الأدبي ، تلك القواعد التي أذعتها في كتاب (الموازنة بين الشعراء) ، وهو من أجل هذا لون جديد في اللغة العربية . وسيكون له تأثير شديد في توجيه الدراسات الأدبية ، وقد يصلح ما أفسد الزمان من عقول الباحثين

وبيان ذلك أني لم أقف من الشاعر الذى أدرسه موقف الأستاذ من التلميذ كما يفعل المتحذلقون ، وإنما وقفت منه موقف الصديق من الصديق . والتشابه بيني وبين الشريف الرضى عظيم جداً ؛ ولو خرج من قبره لعانقني معانقة الشقيق للشقيق ، فقد عانى في حياته ما عانيت في حياتي : كافح في سبيل المجد ما كافح وجهله قومه وزمانه ، وكافحت في سبيل المجد ما كافحت وجهلني قومي وزماني

وهذا الترفق فى معاملة الشريف ليس نزوة شخصية ، وإنما هو وثبة علمية ، فما كان يمكن أن أكون وفياً للبحث إلا إن سايرت الشاعر الذي أعرض عقله وروحه على تلاميذى . وهذه هي المزية التى أتفرد بها بين أساتذة الأدب العربى

سايرت الشريف مسايرة الصديق للصديق : فإن آمن آمنت ، وإن كفر كفرت . إن جدّ الشريف جددت ، وإن لعب لعبت . إن عقل الشريف عقلت ، وإن جن جننت . إن قال الشريف إن غاية الرجل العظيم هى الحرب ، قلت : صدقت . وإن قال : إن الحياة هى الحب ، قلت : والحب الحياة !

ولكنى مع هذا عاملته معاملة الصديق الأمين فنبهته إلى عيوبه بتلطف وترفق ؛ نبهته تنبيهاً دقيقاً جداً لا يفطن إليه إلا الأذكياء ، وفى بنى آدم أذكياء . نبهته إلى عيوبه أكثر من ستين مرة ؛ وما أظنه يحقد علىّ ، لأن الصديق الذى فى مثل حالى تغفر له جميع الذنوب

والشواهد فى هذا الكتاب كثيرة جداً ؛ وذلك هو أسلوبى فى البحث ، فأنا أشغل القارئ بالشاعر الذى أدرسه أكثر مما أشغله بنفسى ، وهذه إشارة أرجو أن ينتفع بها المتحذلقون

اعتمدت على طبعة بيروت وصححت ما صادفنى فيها من أغلاط ، وشرحت ما يجب شرحه من الأشعار خدمة للقارئ الجاحد الذى لا يفهم قيمة الوقت الذى ينفقه الشارح فى تحديد المعانى ؛ وصححت الكتاب كله بنفسى تصحيحاً دقيقاً . فإن رأى فيه القارئ أغلاطاً فذلك ذنب العجلة لا ذنبى . وأدخلت فنوناً من الذوق على الطباعة فى بغداد سيذكرها أصحاب المطابع

بغداد !

هذا كتابى ، أقدمه بيمينى فى تهيب واستحياء ؛ فإن رضيت عنه فذلك لطف ورفق ، وإن غضبت عليه فلست أول حسناء تجحد الجميل

اصنعى فى ودادى من التنكر والتقلب ما شاء لك الدلال . أما أنا فأشهد أنك صنعت بقلبى وعقلى ما عجزت عنه القاهرة وباريس !

أنت مظلومة يا بغداد ، وأنا مظلوم يا بغداد ؛ والظلم يجمع بين القلوب ، نصرك الله ونصرنى ، ورعاك ورعانى ، إنه سميع مجيب . وعليك منى السلام .

زكى مبارك

من بريد القراء

سألنى الأستاذ أحمد أمين من أيام عن فكرة غريبة قال إنها جالت بخاطره ؛ وخاطره هذا كنز لا يفنى من الأفكار الغريبة . قال :

« ترى ماذا يفعل الانسان إذا علم أنه سيموت بعد عام ؟ »

فقلت له : الجواب يتوقف على معرفة نوع هذا الانسان وطبيعته وعلمه

فقال : « أنا وأنت مثلاً . ماذا كنا نصنع ؟ »

فأجبته على الفور :

أنا وأنت ؟ كنا ننكبّ فى الحال على التأليف والكتابة ليل نهار . فقال فى دهشة :

— كنت أحسبك تقول العكس ، وترى أن قرب الموت قد يجعلنا نطلق العمل ونفزع إلى حياة اللهو والمتعة ، أو على الأقل حياة الهدوء والراحة

— نحن يا صديقى نفعل ما يفعله كل أب بار . فما الذى يصنعه الأب البار بأبنائه حينما يدنو منه الموت ؟ ألا يتمنى أن يتركهم وقد اكتمل نضجهم ؟ ألا يفكر ليل نهار فى إتمام تربية هذه الأكباد حتى تقوى على المشي فوق الأرض ؟ وأنا وأنت لسنا أكثر من آباء ، لنا أكباد تمشي لا على الأرض ... لكن على الورق ....فكيف نموت وفى خزائن أحدنا صفحات من كتاب لم يكتمل فى « ضحى الإسلام » أو فى « النقد الأدبى » ، وعلى مكتب الآخر قصص تعج بأشخاص نصف أحياء يطالبون بحقهم فى الحياة ، ويمكون بتلابيب « مؤلفهم » لا يدعونه يموت قبل أن ينفخ فيهم بعض الروح ؟ إنه ليخيل إلىّ أحياناً أن حياتنا متصلة بحياة إنتاجنا ، وإن فى أعماق كل « خلاّق » شبه غريزة داخلية تدفعه إلى الانتاج البطىء أو السريع طبقاً لطول حياته أو قصرها . إنا قد بمنا أنفسنا لشيطان « التأليف » ، ولن يتركنا هذا « الشيطان » فى راحة إلا عندما نلفظ النفس الأخير ؟

نوفيق الحكيم